شيء من فلسفة التاريخ

على شاطىء طفولة نابليون بونابرت

بقلم الدكتور احمد فريد رفاعي

١

البحث في حياة نابليون ومجالي نبوغه وآثار عبقريته وفتوحاته وكل ما يتعلق بحديثه من طفولته الى وفاته موضوع لا تفتق جدته ولا تضعف عناية الجمهور به كتابا وقراء. لذلك يجد القراء في هذا الجزء من المقتطف مقالتين عن نابليون احداهما تتناول مرضه الاخير ووفاته، والاخرى طفولته واثرها في حياته. وقد اغتنم الدكتور رفاعي هذه الفرصة ليحدث القراء في مطلع مقاله عن «طفولة نابليون» حديثاً عن فلسفة التاريخ وكتابة [illegible] لكثرة ما يظهر في الثمانية الربعية كل سنة من كتب السير التي يندر بينها ما هو ادب راق او تاريخ محض

شدّ ما يخشى المؤرخ من استنتاجات افتتانه بالشخصية التي يكبّ على درسها. ويجب ان نعترف ان المؤرخ مع كل ما يسير به عقله من تقدير الحق والعدالة، ومع كل ما يأخذ به نفسه من الأمانة والنزاهة، ومع كل رياضته لاحاسيسه ونزاعاته لتلابس الاعتدال وتزامل الانصاف — فانه معرض في الأغلب الأرجح لاستغواءات العقيدة واستهواءات القادة، فيروح جنديًّا متحمساً لقائده، ويمضي المكافح المستميت في سبيل انتصارة زعيمه، بأثر الفكرة والعقيدة وبحض الأيمان، او على الأقل بأثر المعاشرة والزمالة والصداقة

المؤرخ انسان. والعالم انسان. وحياة الانسان حب وبغض، ميل ونفور، وفاق وخصام، صلة وقطيعة، نور وظلام، أفراح وأتراح، برد وضرام، صدق وكذب، حق وباطل، صواب وأضلولة... هي سلسلة من النقيضات المترادفات. هي قاموس من المترادفات المتناقضات!!

المؤرخ انسان. هو عرضة — ولا نقول اسير... !! — لاحساساته ونزعاته، ولأغاليطه وحماساته، ورومانتيكيته وجيشانه، بيد انه [illegible] ومصور للحقيقة المرئية إن زاد طولاً او عرضاً، او نقص جسماً او حجماً فهو عابث كاريكاتوري، وماسخ هزلي، لا مصور حقيقي!

نحن في عصر مادي. او هو عصر علمي واقعي. او هو عصر اجلاس الكل على منضدة واحدة ومساواة من طبيعة واحدة. او هو عصر يكفر بالاستحالات كفر نابليون بها. او هو عصر السوبرمان

الذي يرى في نفسه اهلية للقيام بما قامت به ابطال الماضي وانصاف آلهة الماضي . او هو عصر يرى من واجبه وحقه ، ومما هو في حوزته ومتناوله ، ومما يجري في جسمه ودمه ، ان يعلم كل شيء . من خطأ وصواب . من جليل وضئيل . من حسنات وهنات . من حياة ابطاله وقادته . لانهم جزء من طينته ، وقبس من طينته ، وشركاء له في انسانيته

تحرر العقل ، او هو آخذ يتوغل في معارج التحرر من عبوديات الامتيازات والفوارق ، وراح ينظر في تفكير ... — والتفكير اول مراتب الشك — الى عوالم الاحتكارات والانفرادات والتألهات في الزعامة وغير الزعامة . ثم راح يتساءل في ضوء المعرفة والحقيقة وبيده مصباح التحليل وتكأة المنطق : الابطال من دم ولحم مثلي . هم آدميون من طينتي وعجينتي . وربما كانت ظروف العلم الحاضر وفرص الحياة الحاضرة تؤاتيني بسدد لم تتح لهم ، وتسلحني بامدادات لم تكن في حوزتهم . والابطال من دم ولحم مثلي . هم معرضون للخطإ كما انا معرض له ، وموفقون الى الصواب كما انا موفق اليه . ثم ان ظروف التعليم ، وحالة الاجتماع ، ودرجة المدنية ، ومختلف اعتبارات العادة والخلق والبيئة والحيل . هذه كلها تحمل في طياتها ، بجذافيرها مجتمعة او منفردة اغاليط او ما يعتبر اغاليط في حياتنا الحاضر وفهمنا للاشياء بالنظر الحاضر والذوق الحاضر

تحرر العقل ، او هو آخذ يتوغل في معارج التحرر ، وبدأ يستشرف بنظرة الانسان المتفوق السوبرمان ، النصف آله ، على جميع المناطق التي كانت منذ عهد قريب تعتبر مناطق خطر ..... اقاليم خطر خارجة عن الحدود ، من نظريات ومعتقدات . ومن عبادات وأديان . ثم كان من وراء هذه النظرة التلسكوبية المستشرفة ان اخترقت غلاف البرشامة ووصلت الى المسحوق .... والمنظار لا يقصر في فحصه والكيماوي لا يرحم في تحليله وان اخطأ احدهما لم يعجز الثاني ....

تحرر العقل ، او هو آخذ يتوغل في معارج التحرر ، وفي تحرره انطلاق ، وفي انطلاقه طيران الى كل مجال ، وتحليق في كل جو ، فوق قلاع القياصرة وقصور الملوك . فوق الحقوق المقدسة سواء كانت من السماء او من الشعب . فوق مدافن الزعماء امواتاً ومجتمعات القادة احياء . فوق التاريخ والآثار والمتاحف . فوق الاطلال الدارسات والعوالم الماضيات . فوق الماضي والحاضر . فوق الخطأ والصواب . فوق التحزب لدين او نبي او ولي او زعيم . فوق « البابا » و « لوثر » و « كالفن » و « اراسمس » و « وسنت فرلس » و « سنت دمونيك » . فوق الجميع لانه وليد الحرية والاخاء والمساواة

٢

في يناير سنة ١٨٣٤ كتب المؤرخ الانجليزي اللورد ماكولي كلمة متزنة لمناسبة ظهور المجلدين اللذين وضعهما ترنسيس تاكري عام ١٨٢٧ عن ارل أف شاتام وليم بت

في ثنايا تلك الكلمة المتزنة شيء يعنينا . هو تعريف لنوع من المرض شديد الخطر على التاريخ وكتابة التاريخ . ويجب ان نذكره في التو واللحظة ليكون نصب عينا بمثابة « منارة » او « فنارة » للاهتداء والاسترشاد ونحن آخذون في تدوين مذكراتنا عن حداثة نابليون

اما المرض ، الذي نسأل الله السلامة منهُ ، فهو ما يسمى « بلويس بوزولبانا » *Lues Boswelliana* واما تعريفه فهو مرض الافتتان . . . . . يعني ماذا ؟

يجوز ان يكون الزعيم الذي تدرس حياته ، وتحلل شخصهُ ، وتتفهم عصره قد عبث اثناء طفولته ببيتٍ مقفى منظوم ، ويجوز ان يكون قد عبث بلعبة ما ، او كان ثرثاراً ، او كان . . . او كان . . . . في حادثة او حادثتين ، وموقف او موقفين — فالمؤرخ المصاب بسرطان مرض الافتتان ، والمريض بداء «اللويس بوزوليانا» العضال ، يأبى في تعنتٍ وعنادٍ وتصلب نظر واستبداد فكر ، الا ان تؤمن انت بان ذلك البيت المقفى المنظوم الذي كان يغرد به معبوده هو السحر الحلال . هو تحفة الناظر ، ومتعة الخاطر . هو السجد والجمان مبنى في حكمة لقمان معنى . اما لعبتهُ فشجاعة وبراز ، واما ثرثرتهُ فبلاغة واعجاز ، واما سخفه فرخاص ، واما طوله فدرة الغواص ! !

[illegible] ، ويجب ان نرس [illegible] ، وفهمك كفهمه ، ولماذا لا تكون صديقاً لصديقه ومحباً لحبيبه وان لم تكن ثمت من صلة تعارف بينكما من قبل ؟

٣

ولو انهُ قد تحرر العقل ، أو هو آخذ يتوثب في معارج التحرر ، وبدأ الانسان — وليد الحرية والاخاء والمساواة — يثور على القديم من تقاليد ومعتقدات وهياكل وديانات فانهُ سيثور على جديده يوم يضحي الجديد قديماً والقديم جديداً . لأن الاسباب متصلة والمعاني متضمنة بلا توقف ولا محطات . ولان السلسلة مستمرة لا انفصام لها ولا انقطاع . ولان العقل الذي يتقد ، وينفذ في نقده الى الصميم — ان ظالماً او عادلاً ، ان مبطلاً او محقاً — لم يتقد ساخراً او يتهافت مستهزئاً الا لانهُ قد كوّن في مخزن تصوره العقلي مثله الاعلى ، بطله المحبوب ، امله ومستقبله ، شخصه وذاته ! !

فهو وان محرر او آخذ يتوقل في معارج التحرر ، واصبح كل شيء في نظره مراغاً مستراداً ، وفي حوزته مذالاً ميسّراً حتى انهُ تهجم بمضيعي لتشريح ، لم يكن يجسر على تحديق النظر فيه ، وحتى بدأ يسمي الافتتان بداءة « اللويس بوزوليانا » وحتى انهُ اسمى بصاحبة الجلالة « الصحافة » ، التي كانت اسيرة سجينة ، وحتى أحى هامته للرأي العام أن كارهاً أو راضياً . وقد كان الرأي من قبل لاصحاب السوح او الالقاب وحائزي الاقطاعات من تلاع وفلاع وبقاع ، وحتى . . . . وحتى . . . . الى ما لانهاية له ولاحد . بَيْد انهُ لا يزال الانسان انساناً ، ولا يزال متخذاً من مجموعته ومعاشريه من الابطال وشتى الصور والقرأءات مثلهُ العليا . ولا يزال الانسان كما كان امام الجاحظ ينظر الى تلك الآثار والمؤلفات نظرة تقدير . بل لا يزال الانسان المنطقي العاقل لا يرتاح لمن يهدم ارتياحه لمن يبني ، ثم لا يزال الانسان منذ القديم يتبرم بمن يكثر النقد ويكثر من التجريح

ولماذا نذهب في التحليل بعيداً وامامنا من المدرسة القديمة الجاحظ للرد على متنقصي أثره ، وخلاصة عقله ، وهيكل تكوينه وشخصه فقال ما يجدر ان نذكره في أنفسنا على الاقل عند درسنا لكل عظيم أو نقدنا لكل جليل حين نذكر « اللويس بوزوليانا » في نفس اللحظة وفي تيارة ومضة التفكير

قال الجاحظ : « ثم قصدتَ الى كتابي هذا بالتصغير لقدره ، والتهجين لنظمه ، والاعتراض على لفظه ، والتحقير لمعانيه ، فزريت عليَّ نحتهُ وسبكه ، كما زريت عليَّ معناه ولفظه ، ثم طعنت في الغرض الذي اليه [illegible] ، وهذا كتاب معناه [illegible] من اسمه ، وحقيقته أنق من لفظه ، هو كتاب يحتاج اليه المتوسط العامي ، كما يحتاج اليه العالم الخاصي ، ويحتاج اليه الرَّيِّض ، كما يحتاج اليه الحاذق

« اما الرَّيِّضُ فللتَّعلم والدُّربة ، وللترتيب والرياضة ، وللتمرين وتمكين العادة ، إذ كان جليلهُ يتقدَّم دقيقهُ ، وإذ كانت مُقَدَّماته مُرَتِّبة ، وطبقات معانيه مُنَزَّلة ، واما الحاذق فلكفاية المؤونة ، ولأن كل من التقط كتاباً جامعاً ، وباباً من أمهات العلم مجموعاً كان لهُ غُنْمه ، وعلى مؤلفه غُرْمه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كَدّه ، مع تعرُّضه لمطاعن البغاة ، ولاعتراض المنافسين ، ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغة ، ومعانيه على الجهابذة ، وتحكيمه فيه المتأولين والحُسَّدة ، ومتى ظفر بمثله صاحب علم او هجم عليه طالب فقْه ، وهو وادع رافه ، ونشيط جام ، ومؤلفه مُتْعب مكدود فقد كُفي مؤونة جمعه ، وحزنه وتتبعه ، وطلبه ، واغناه ذلك عن طول التفكير ، واستنفاد العمر وكَلال الجَدّ ، وأدرك اقصى حاجته ، وهو مجتمع القوة ، وعلى انَّ لهُ عند ذلك

ان يجعل هجومه ضرباً من التوفيق ، وظفره به باباً من التسديد »

وبعد فان كلمات الجاحظ في الذود عن خلاصة عقله ، ودفاعه عن هيكل تكوينه وشخصه ، وبيان خطر اثره وما له من نفع للريض والناقد ، وما له من فائدة للمؤمن والجاحد . . . . هذه الكلمات الحكيمة خليقة بذكرك عند دراستك لكل عظيم ، وعند تحدثك عن اخلاقه ومناقبه ، وماثره ومساويه ولسنا نمنعك من حرية عقلك ، ولا نحول بينك وبين التحليق في كل الاجواء . ولسنا نحظر عليك حتة الحصانة بمصل اعتدالك ضد مرض « اللويس بوزوليانا »

— ٤ —

نعلم ان « كارلو ماريادة بونابارت » الضيق الارزاق ، الطيب الاعراق ، تزوج من « ماريا لتزيا راموليتو » الضيقة الارزاق ، الطيبة الاعراق . ويظهر ان مهبطات الفقر مثل مرتفعات الغنى في استمرار السلسلة واندفاعها إما لأسفل المتحدرات وإما لأعلى المتحدرات. فتجد ان الرجل المكثار من النسل والذرية والمرأة المدرة الولود كلاهما فقير مجدب ، وكلاهما عديم معز ، إلا فيما شذ وندر. هذه هي القاعدة . ولعل هذه القاعدة المناقضة للظرف والمادة مواتية في الوقت نفسه لعبث الاقدار وسخريتها من حيث اعطاؤها باليمين بقدر حرمانها بالشمال. ولعلها في عبثها هذا او ما تسميه بعبث وسخرية لها حكمة تدق عن الاذهان وتسمو دون الخيال من عدل وعصفة في توزيع لذاذات الدنيا من مباهج وزينات وحطام وثروات ، وبنين وبنات

ونعلم انهُ قد عاش تلك المرأة المدرة الولود سبعة اولاد حين اوصت بما تركت من مال فانتهُ اثناء بسمة الدهر لابنها نابليون . وقلما يسم الدهر بسمة سمحة وضاءة كتلك البسمة لا لمصر في مجدها ، ولا لليونان في عبقريتها ، ولا للرومان في سمة وقمتها . . . . . لقد كانت بسمته قهقهة عالية من قلب مفراح طروب ووجه جميل صبوح وفم فتان يسيل رقة وشهداً . وإلاَّ فكيف تسى لهذه الام التي لعلم من ضيقها وعوزها ما لعلم ان تترك حين وفاتها في مرسيليا عام ١٨٢٢ اي حوالي سنة واحدة بعد وفاة ولدها البطل العظيم في سنت هيلانه — لكل من اولادها السبعة الاحياء مليوني ريال ولأخيها الكاردينال « فش » قصراً فخماً حوى من الرياش والاثاث والتماثيل والتهاويل مايعتبر من اثمن التحف في اوربا . . . !

ولكن هذه الايام التي بسم الدهر لها بسمة صادقة عن طيب قلب لا عن رياء او مجاملة وقليلاً ما يبسم الدهر تلك البسمة لانهُ بطبعه متجهم عبوس ، ولانه بنزعته قُلَّبٌ حُوَّل ، كانت هي الاخرى قلادة بين النساء . واليك قصة تصور لك تلك الام التي خاطبها «باؤلى»

في عام ١٧٩٣ « بكورنليا » رامياً بذلك الى ان هذه السيدة الصبوح الحازمة الدؤوبة ساكنة القرى لا الحواضر ، خليقة ان تدر بنسل من الابطال

بعد ان توفل نابليون سدّة الملك وتسربل بلباسه ، وامسك بصولجانه ، قابل الام في حدائق سنت كلود ، وكان محوطاً بالحاشية والبطانة فمد نابليون يده الى امه لتقبلها ولا نستطيع ان نحكم ان كان قد مدّها جاداً ام عابثاً ام نصف جاد أو عابث وإنما يحدثنا الاستاذ « ايوت » ان الام هي الاخرى مدّت يدها قائلة لولدها في رزانة واتئاد : « ليس هكذا ياولدي . إنهُ لمن واجبك انت ان تقبل يد من وهبك الحياة ؟ »

هذه الام الرءوم العظيمة ، التي انحيت للحياة بطلنا العظيم ، كانت محبوبة مرموقة من ولدها العظيم الذي يحدثنا عنها في مذكراته : « اضطرت والدتي التي تركت بلا مرشد ولا معين ان تأخذ على عاتقها الاعباء والانفال . وكان العمل مما يؤودها ويهظها ، ولكنها كانت تدبر كل شيء ، وتحتاط لكل شيء ، بحصافة لم تكن لتنتظر من بنات جنسها ، ولا من شريكات عصرها . . .

« إيه ! ما اعظمها من امرأة ! اين تنظر مثيلها واترابها . لقد كانت تحدب علينا في تقلقل بلبال لا يدانيه في عطفه شيء

« كانت تاني في النفاية ولا تشجع كل عاطفة سافلة وكل حاسية غير نبيلة . . . وما ضنت إلاّ بكل عظيم وسام عاملة على غرسه في عقولنا الطفلة . لقد كانت تمقت الكذب وما كانت لتتسامح في اي عمل من اعمال عدم الطاعة مهما كان طفيفاً ، وما كانت تتوانى في سقطة من سقطات [illegible] له من نفسها لانها تحملت الكل ، وكانت شجاعة ازاء الكل

« لقد كان لمسها نشاط الرجل مزيجاً في حنان الام ورقتها

هذه الام الرءوم العظيمة ، التي انحيت للحياة بطلنا العظيم ، كانت محبوبة مرموقة من ولدها العظيم فالتاريخ يحدثنا في اكثر من شاهد بأنها كانت موضع حب العظيم ، واحترامه العظيم . . . . وكم من مرة اعترف في صراحة وجلاء بأن الاسرة جماء مدينة لتنشئتها لهم سجيًا وخلقيًا تلك التنشئة التي اعدتهم لتسنم ذروة السلطان في مستقبل ايامهم . . ويحدثنا الاستاذ ايوت في هذا الصدد : كان نابليون عميق التأثر في احاسيسه ازاء تلك الدين فطالما كان يقول : « ان من رأيي ان مستقبل سيرة الطفل من حسن او قبح يتوقف بأكمله على امه » . . . ولقد كان من اولى صنائعه حينما توفل سلطانه احاط والدته بكل ما تواتيه الثروة من رغد ورفاه . وقد بادر في الثو واللحظة في همة ونشاط حينما اضحى على

وأمر الحكومة الفرنسية الى انشاء مدارس لتعليم البنات ، مقرراً ان فرنسا في جهودها لاصلاح نسلها وترقية جيلها لفي امس حاجة الى فضليات الامهات »

هذه الأم الرؤوم العظيمة التي انجبت للحياة بطلنا العظيم ، كانت هي ربة البيت لا الزوج. فقد حدثنا نابليون عنها في معرض كلامه عن أخيه يوسف بقوله : « كان اخي يوسف هو الشخص الذي طالما اختصم معه ، فكان يُضرب مني ويمض ويمين . وكنت استبق بالشكوى منهُ قبل ان اعطيه الوقت ليثوب الى نفسه من بليته وذلك لأنه لزام عليّ ان اكون يقظان منتبهاً لئلا تبادر والدتنا الى كبح جماحي في مزاحي الحربي فهي لن تقف مكتوفة الأيدي ازاء زلاتي هذه . فرقتها تحالفها الصرامة وبقدر ما تكافىء تعاقب. سيان عندها الأمران فلن يفلت من قصاصها شيء من حسن وسيء . أما والدي فهو وان كان رجل عقل يد انه مكب بأجمعه على لذته بدلاً من أن يصيب طفولتنا بقسط كبير من عنايته . وقد يحاول في بعض الأحايين ان يشفع لنا في بعض اغاليطنا فتقول له الأم « دعهم وشأنهم فليس الأمر من عملك أنت ، وانما من واجبي انا ان انظر فيما يجدي عليهم » . والواقع انها كانت تعنى بملاحظتنا بشكل لا مثيل له مما يقض مضجعها ويقلق بالها . فكل عاطفة دنيئة او هوى غير كريم يلقى من عدم تشجيعها ما يقله ويمحوه. ولقد اجهدت نفسها في ان لا يغرس في عقولنا الطفلة اللدنة الا ما هو حسن وما هو سام . وكانت تمقت الكذب وتثير ثائرها التمرد . وما كانت تتهاون في شيء من سقطاتنا . . اه »

هذه الأم الرؤوم العظيمة ، التي انجبت للحياة بطلنا العظيم ، والتي خلقت لتكون من خير المربيات اليقظات ، والأمهات الحدبات الشديدات ، والبارات الصارمات ، لم يذكرها نابليون في كل موقف من مواقفه ، وفي كل كلة من احاديثه . الا مع التجلة والمودة الصادقة والتقدير الكبير وما كان ليسمح لمخلوق ايًّا كان لينال منها وينتقص . وقد قال عنها : « امي الفائقة القدر امرأة شجاعة وموهبة عظيمة ..... انها لقادرة ان تفعل كل شيء في سبيلي » ثم عزا كل ما وصل اليه في حياته من مرتبة سامية وجاه عريض الى جهودها ويقظتها وتنشئتها فقال « انني مدين لأمي — لنشأتها الحسنة ومثلها الاعلى — في نجاحي وفي كل ما اديت من عمل كبير » ثم قال « امي امرأة سامية ، امرأة كفاءة وبسالة »

[البقية في الجزء القادم]